الغريزة الجنسية

بقلم الدكتور عامر عبد القادر
أستاذ علم النفس والتربية بكلية أصول الدين

ربما يكون التوسع في بحث الغريزة الجنسية وليد العصر الحاضر. وإن الفضل في دراستها واعطائها حقها من العناية ليرجع إلى الدكتور سجمند فرويد الذي يعد بحق أبا علم النفس التحليلي وواضع حجره الاساسي والمشيد لبنائه.

وليس ببعيد أن السابقين من علماء النفس كانوا على علم بهذه الغريزة. ولكن الحياء منعهم من ابداء آرائهم، ومواجهة الجمهور بها. أما الآن — وقد أصبحت دراسة هذه الغريزة أمراً عادياً، وأدرك جميع علماء النفس — على اختلاف مذاهبهم — مبلغ آثارها في الحياة العقلية بناحيتها الظاهرة والباطنة — فاني أرى أن الوقت قد حان لنا لمعرفة هذه الغريزة وفهم أسرارها — فإننا نتقدم لقراء « المعرفة » وصفاً عاماً لهذه الغريزة — وبياناً لآثارها متبعاً في ذلك رأي فرويد على الأخص فأقول: —

هذه الغريزة من أشد الغرائز تعقداً، إذ أنها تشمل جميع الوجدانات والأعمال التي لها علاقة بالاختلاط الجنسي، أي باتصال الذكر بالأنثى من أي نوع من الأنواع الحيوانية.

فالتقرب من الأنثى ومغازلتها وخطب ودها، وحب الاختلاط بها، وبناء الأعشاش والبيوت، وحماية الزوج والأولاد، والقيام بشئونهم — كل هذه الأعمال وما أشبهها راجعة إلى هذه الغريزة. وإن منزلة هذه الغريزة، من الوجهة الاجتماعية، لتظهر لك في أن كثيراً من المشاكل الاجتماعية، والأمراض العصبية يرجع إلى ذلك النزاع المستمر بين هذه الغريزة، وبين القوانين الاجتماعية التي تحول دون ظهورها.

فاذا بلغ ذلك النزاع أشده، فمعناه أن تلك الغريزة نمت وأصبحت قوية بحالة خارجة عن حد الاعتدال، وهذه القوة ترجع في الغالب إلى المغالاة في إرضاء هذه الغريزة، ثم محاولة كبتها دفعة واحدة دون تمهيد لذلك.

وقد أثبتت التجارب أن قوة هذه الغريزة أو ضعفها يرجع إلى زيادة أو نقص في مواد خاصة تفرزها بعض الغدد الداخلية؛ ولا يبعد أن يأتي يوم يمكن فيه قياس الرغبات الجنسية بمقدار تلك المواد المشار إليها.

والعنصر الوجداني الملازم لهذه الغريزة ، هو انفعال حبي يشعر به كل من الذكر والأنثى نحو الآخر . والغاية السلبية التي ترمي إليها في الظاهر ، هو اختلاط الشخصين ، وتعهد كل منهما الآخر بالحفظ والعناية ، ولكن الغاية الحيوية منها هي الاحتفاظ بالنوع ، ولذا ترى الخليطين يعنيان بأطفالهما عناية كل بالآخر .

ومن هنا ترى أن الغريزة الجنسية متصلة بغريزة الأبوة أو الأمومة اتصالا تاماً بحيث لا يمكن وضع الحد الفاصل بينهما ، فعمل الأعشاش ، وبناء البيوت ، والدفاع عن الحريم ، يرجع إلى كل من الغريزتين . ولذا يستحسن أن تسمى هاتان الغريزتان « الغريزة التناسلية » ؛ إذ أن الغريزة الجنسية تمثل الدور الأول للغريزة التناسلية ، وغريزة الأبوة تمثل الدور الثاني لها ، والغاية منهما واحدة : وهي التناسل ، والاحتفاظ بالنوع .

ويعضد هذا الرأي القائل بتوحيد الغريزتين : (١) أن العنصر الوجداني في كل منهما هو المحبة ، (٢) أن علم النفس التحليلي يقول : إن المحبة المتبادلة بين الشاب والفتاة ، أو بين الأب وابنته ، أو بين الأم وابنها ، محبة جنسية مختلفة الوجهة .

وإنا نشاهد أن من السهل قمع هذه الغريزة على قوتها ومعارضة مطالبها أحياناً للقانون الاجتماعي . وأن حياة الانسان حياة سلام ووئام في بيئته تتوقف — إلى حد كبير — على حسن توجيهها .

ولذا ترى أن جميع المجتمعات — مهما كانت منزلتها من الحضارة — تعنى بهذه الغريزة وتضع — لتنظيمها أو إخضاعها — طائفة صالحة من القوانين تعززها التقاليد والعادات والعقائد القومية .

وربما يكون من أهم المشاكل التي تصادف كل أمة متمدينة ، تنظيم نزعات هذه الغريزة ، بحيث تصل إلى الغاية الحيوية التي ترمي إليها ، دون أن يحدث ذلك ضرراً اجتماعياً لتلك الأمة ، أو تأخراً في الثقافة الأدبية والخلقية التي وصلت إليها .

رأي فرويد .

يرى (فرويد) الطبيب النمساوي ، والعالم النفسي الشهير : أن الغريزة الجنسية مصدر جميع الغرائز ، بل جميع الدوافع التي تحمل الانسان على العمل ، وهو يعزو جميع الأحلام ، وجميع الأمراض العقلية ، والعلل العصبية — مهما كان نوعها — إلى عدم إرضاء هذه الغريزة .

بل إنه يقول : إن جميع الأعمال العقلية مرتبطة بالغريزة الجنسية ، وإن خفيت علينا العلاقة بينهما . ويقول فوق ذلك : إن جميع الرغبات الظاهرة والمكبوتة التي تشغل ناحيتي العقل الظاهرة والباطنة ، وجميع أنواع المحبة ، سواء أكانت للأم أم للزوجة أم للزوج ، ترجع إلى الغريزة الجنسية .

والخلاصة : أن هذه الغريزة ـ فى رأى فرويد ـ هى الباعث الحيوى الوحيد الذى تنشأ عنه جميع البواعث التى تدفع الانسان إلى العمل. وهى تظهر ـ فى رأيه ـ بعد الولادة، وتلازم الانسان طول حياته . و(فرويد) لا يدلى برأيه هذا دون أن يبرهن عليه : ولكنه يقيم عليه البراهين التى قبلها أتباعه ، ورفضها معارضوه ، فمن هذه البراهين : ـ

١ ـ ما يرى من ميل الطفل إلى امتصاص أصابعه ، وقبلته بأمه ، أو حاضنته ، أكثر من قبلته بأبيه ، وغيرته على أمه من أبيه ، وميله للاستئثار بها .

٢ ـ ما يلاحظ من أن الأطفال يحبون الاختلاط بالبنات ، وتمثيل الحياة الزوجية فى عهد الطفولة .

٣ ـ ما يشاهد من أن معظم الفنون الجميلة تدور حول المسائل الجنسية ، فالأغانى معظمها مجونية ، وجميع الآداب مفعمة بالقسس الجنسى ، وأغلب الروايات غرامية ، والرسم والتصوير اتجاه كبير نحو الأمور الجنسية .

٤ ـ ما هو شائع بين الناس من أن جرى الرجل وراء المرأة أو العكس ، ـ كان ولا يزال ـ مصدر كثير من الأخطار الاجتماعية ، ولذا يقولون إذا حدث حادث جلل : « ابحث عن المرأة » .

٥ ـ ما هو معروف من أن الغرض من كثير من القوانين الشرعية والوضعية هو تنظيم الحياة الزوجية ، وإيقاف الغريزة الجنسية عند حد معقول .

٦ ـ ما قد ثبت بالتجارب من إمكان مداواة جميع الأمراض العقلية والزلات العصبية بعلاج جنسى .

هذا بالاختصار هو رأى (فرويد) وأتباعه ، الآخذ فى الانتشار فى أوربا وأمريكا . وأكبر معارض له هو الأستاذ (وليم مكدوجل) الذى ينقد رأيه ، ويبرهن على أن ما يقوله (فرويد) صحيح من بعض الوجوه ، أى إذا طبق على الأشخاص غير العاديين ، الذين تقوى فيهم هذه الغريزة وتخرج عن حدها.

وأكبر حجة له على ذلك : هو أن البراهين التى يدلى بها (فرويد) ليست عامة ، ولكنها خاصة تصدق على بعض الأفراد ، فلا يمكن أن تتخذ أدلة قطعية يثبت بها قانون عام يقينى . فالمسألة ـ كما ترى ـ خلافية لا تزال رهينة البحث ، ولكن النصر حتى الآن ـ لا يزال فى جانب (فرويد). فلننتظر حتى تنتهى المعركة ، ويبرهن الأيام على صحة أحد الرأيين .

الغريزة الجنسية والفنون :

وإنا مع انتظار القول الفصل ـ لا نتكر أن للغريزة الجنسية السيطرة فى عالم الوجدان ، وأعظم الآثار فى عالم الفنون الجميلة . وها نحن أولاء نتكلم عن علاقة هذه الغريزة بالفنون الجميلة فنقول : ـ

من الملاحظ أن هناك علاقة متينة بين هذين الأمرين ؛ فالعاشق يحسن الكتابة الفنية ، ويجيد الشعر ، ويتقن الرسم والتصوير ، ويبدع فى الضرب والعزف والغناء ، ويفنن فى الرقص والتمثيل وتأليف الروايات . وقد لوحظ أن الفنان ـ وهو أعزب ـ أقدر على إتقان الفن منه بعد أن يتزوج .

آراء العلماء فى تعليل هذه الصلة :

وللعلماء فى تعليل هذه العلاقة آراء : ـ

١ ـ فمنهم من يقول : إن هذه الفنون من مظاهر الغريزة الجنسية ، وتتخذ وسيلة للتقرب من المحبوبة ، دون أن يشعر المحب بذلك ؛ فهى فى الأصل واسطة ووسيلة ، ولكنها تصبح غاية فى ذاتها .

٢ ـ وهناك من يقول : إن هذه الغريزة تثير فى النفس عواطف ورغبات وميولا نحو أشياء غامضة غير محدودة ، وتمد الجسم بطاقة عصبية قوية . ومن حيث إن اتجاه هذه الغريزة لا يكون محدوداً ، فإن هذه الرغبات ـ معززة بتلك الطاقة ـ تنصرف إلى الفنون الجميلة ، وتضعدها فى ذلك التقاليد الاجتماعية . وإنما تنصرف تلك الرغبات إلى الفنون الجميلة ، لأن هذه أقرب مُرَاس لذلك ، وأشد شبهاً بها لاتصالها كلها بعالم الجمال ، وارتباطها بعالم الوجدان والعاطفة .

٣ ـ ويقول فريق ثالث : إن الطاقة العصبية التى هى من آثار الغريزة الجنسية ، لا تستنفد جميعها فى سبيل إرضاء هذه الغريزة ، ووصولها إلى غايتها ، فيبقى جزء منها يصير مدداً للقوة التى تستخدم فى الفنون أولا ؛ ثم فى أعمال عقلية أخرى لا علاقة لها بالغريزة الجنسية ثانياً .

وهذا هو رأى (فرويد) وأتباعه القائلين بأن منشأ الطاقة العصبية كلها هو الغريزة الجنسية التى ترجعون إليها جميع الأعمال العقلية ، وجميع أنواع السلوك الانسانى .

عصر ظهورها :

يقول (فرويد) : إن هذه الغريزة تظهر بعد الولادة ، ويستدل بميل الوليد أو الطفل إلى أمه أو حاضنته دون أبيه ، وبالغبطة والسرور اللذين يظهران على وجهه عند التقام ثدى أمه ، أو

امتصاص إصبعه أو إصبع أمه ، حتى فى غير أوقات الجوع ، وبغير ذلك من الأعمال التى قد تكون من آثار هذه الغريزة ؛ ولكن الأستاذ (مكدوجل) لا يوافق (فرويد) على هذا الرأى ، معتمداً بأن ليس لدينا من الأدلة ما يبرهن على أن تلك الميول وذلك الشعور بالسرور الآنف الذكر ، من مظاهر الغريزة الجنسية . وإن فقد الخجل الجنسى ـ فيما قبل الثامنة ـ قد ينهض دليلا على انعدام هذه الغريزة قبل تلك السنة .

فالرأى عند (مكدوجل) : أن الغريزة الجنسية لا تظهر إلا حوالى السنة الثامنة ، حيث تظهر على الولد أو البنت آثار الحياء ، والخجل الجنسى ، وحيث تقع من الأطفال أعمال تدل على أن هذه الغريزة فى حال يقظة ؛ أما قبل تلك السنة ، فإنها تكون فى حال نوم عميق ؛ وما الأعمال التى ينسبها (فرويد) إلى هذه الغريزة فى عهد الطفولة الأولى ، إلا ناشئة عن أسباب (فسيولوجية) لا علاقة لها بالتفكير ولا بالشعور الجنسى ؛ فالطفل يلذ له التقام ثدى أمه ـ مثلا ـ لما يناله من لذة وسرور ، لا لشعوره بأنها أنثى وهو ذكر .

وفيما بين الثامنة وسن المراهقة تستمر هذه الغريزة فى السمو ، وتقوى تدريجياً تبعاً لنمو أعضاء التناسل . وفى هذه المدة تظهر على الولد آثار هذه الغريزة واضحة جلية ، ويبدأ تعلقه بالإناث إلى حد ما .

ومن حيث إن أعضاء التناسل لا تنضج قبل المراهقة ، فمن المضر جداً أن يستخدم الأولاد أو البنات أعضاءهم التناسلية ، قبل نضجها لأغراض جنسية ، أو يحرضوا على القيام بأعمال من هذا القبيل ؛ لأن التجارب قد دلت على أن كثيراً من العادات الجنسية القبيحة ، التى ينشأ عليها الأولاد بعد البلوغ ، ترجع إلى سوء استعمال أعضاء التناسل فيما قبل .

فعلى المربين وضع هذه الحقيقة نصب أعينهم ، ومراقبة أولادهم فى تلك المدة ، مع توخى جانب الحكمة والحزم ، حتى لا يفهم الأولاد أنهم مراقبون من هذه الناحية .

وعند البلوغ يتم نضج أعضاء التناسل ، فتبلغ هذه الغريزة أشدها ، فتحمل المرء على السعى فى قضاء مطالبها ؛ ولذا تكون حياته فى خطر ، ويصبح فى حاجة شديدة إلى حسن القيادة . والتزود بالأفكار الصالحة ، وتعود العادات الحسنة التى تكبح جماح هذه الغريزة ، وتهدى من ثائرتها .

ومن هنا نرى الحكمة فى حث الدين الإسلامى على الزواج ، وتفضيل التبكير على التأخر فيه ؛ لأن فى إرضاء هذه الغريزة بالطرق المشروعة حفظاً للأخلاق والآداب ، وتقوية للنفس ، وحثاً على السعى فى طلب الرزق .

وقد قال (فرويد) بحق : إن إرضاء هذه الغريزة بالطرق المعقولة لمن أسباب تنمية الجسم والعقل ، وتقويم الأخلاق ، وتقوية المواهب الإنسانية على العموم . أما كبتها أو سوء قيادتها ، فيؤدى ـ ولا محالة ـ إلى اضطراب عصبى ، وأمراض عقلية قد يصعب علاجها ، وتكوين عادات سيئة قد يكون من المستحيل التخلص منها . ؟

حامد عبد القادر